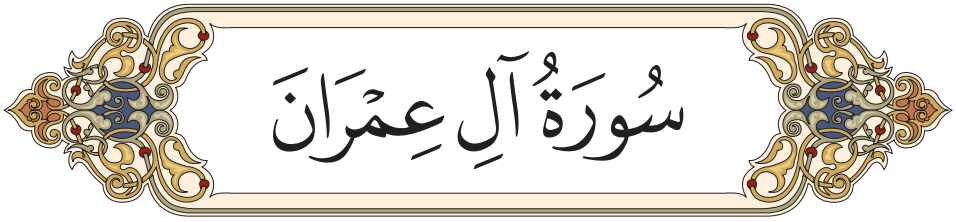
سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

❁ التَّعريف العام بالسُّورة:

نقل ابنُ عطيَّة الأندلسيُّ إجماعَ أهل العلم بالتَّفسير أنَّ سورة آل عمران مدنيَّة[1]، وَهِي مئتا آيَة عند جمهور أهل العدَد[2]، ومئة وتسع وتسعون آية عند أهل العدد بالشَّام[3] على حسب اختلافهم في الوقوف على فواصل السُّورة، والمؤكَّد هنا أنَّها السُّورة الثَّالثة في ترتيب المصحف الشريف بعد سورتَي الفاتحة والبقرة، حسب التَّرتيب التَّوقيفيِّ لسُوَر القرآن الكريم، وهو التَّرتيب الَّذي تعاضدت عليه آراء جهابذة العلماء والمحقِّقين من قدماء ومعاصرين، وذكر بعض المفسِّرين أنَّ ترتيبها النُّزوليَّ هو الثَّامن والأربعون في عداد نُزُول سُوَر القرآن[4].

❁ دلالة التَّوقيت الزَّمنيّ للسورة:

الفترة الزّمنيّة التي نزلت فيها سورة آل عمران فترة حافلةٌ بأحداث جِسام عاشها المجتمع المسلم الأوّل في المدينة المنوّرة حيث نزلت بعد فترة طويلة من حياة المسلمين بها، وبعد أن تقلَّبت عليهم فيها أحوالٌ من النَّصر والهزيمة، في غزوات مُتعدِّدة، واختلطوا بأهل الكتاب من يهود ونصارى، وجرى بينهم من الحِجاج والنِّقاش ما يتَّصل بالدَّعوة المحمَّديَّة، وقد ذُكِرَت فيها غزواتُ بدر وأحد وحمراء وبدر الأخيرة، وكانت هذه في شعبان من السَّنة الرَّابعة، وقد نزلت سورة آل عمران بعد سورة الأنفال الَّتي تكفَّلت بالحديث عن غزوة بدر، ونزلت بعدها سورة الأحزاب الَّتي نزلت في آخر السَّنة الخامسة[5].

❁ أسماء السُّورة الكريمة:

اسم السُّورة المُشتهر: سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ، وفي حديث النَّوَّاس بن سمعان: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ، وَضَرَبَ لَهُمَا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: ص 274.
(2) الدّاني، البيان، ص: 143.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/144.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/144.
(5) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنية: 2/5.

رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ، بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»[1]، وتُسمَّى مع البقرة: بالزَّهراوين، فهي الزَّهراء، وذلك لِمَا ورد في الحديث الصَّحيح: «اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا»[2].

وَأمَّا وجه تسميتها بسورة (آل عمران)؛ فلأنَّها انطلقت من ذكرها فضائلَ آلِ عِمْرَانَ[3]، واصطفاءَهم على العالمين بقوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: 33].

وبيّنت كيف أنَّ امرأة عمران نذرت ما في بطنها لله ﷻ، فرُزقت بمريم الَّتي اصطفاها تعالى لخدمة بيته، واجتباها لتكون أُمًّا لعيسى عليه السلام بعد ذلك، ولعلَّ في الإشارة إلى هذه العائلة، وما مرَّت به من تحدِّيات يرتبط بمحور السُّورة الرَّئيس: وهو إثباتُ الوحدانيَّة لله تعالى[4]، فاصطفاء اللهِ ﷻ آلَ عمران: بالبذل والعطاء والانضواء في محراب توحيد لله والاستسلام لأمره سبحانه، هو اصطفاءٌ - أيضًا - لأمَّة محمّد ﷺ، واجتبادٌ لأهل التّوحيد والصّلاح، ويرتبط هذا الاصطفاء بمحور الثَّبات على الحقِّ الَّذي هو خيطٌ ناظمٌ وملمحٌ واضحٌ من ملامح هذه السُّورة عند بعض العلماء، فامرأة عمران كانت رمزًا في الثَّبات على الحقِّ والتَّضحية بالغالي والنَّفيس في سبيل دينها، وقد أحبَّت أن يكون مولودها المنتظر منذورًا لخدمة هذا الدِّين، وأمَّا مريم عليها السلام فقد أبرَّت بنذر أمِّها، وقامت على خدمة الحقِّ والثَّبات على تكاليفه الباهظة الَّتي لا تستطيعُه قريناتُها ولا يُطيقُهُ أترابُها، فتعرَّضت لصدمات نفسيَّة وهزَّات عاطفيَّة عنيفة لم تُفقِدْها توازنها في ثباتها على المبدأ الَّذي نذرت نفسها له.

ولها أسماء أخرى ذكرها بعض العلماء منها: "الزَّهْرَاءُ، وَالْأَمَانُ، وَالْكَنْزُ، وَالْمُعِينَةُ، وَالْمُجَادِلَةُ، وَسُورَةُ الِاسْتِغْفَارِ، وَطِيبَةُ"[5].

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (804).
(2) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (805).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/143.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 4/195.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/9.

موضوعات السّورة:

وقفة مع أهمّ الموضوعات التي تناولتها سورة آل عمران

تناولت سورة آل عمران جملةً من الموضوعات، يجمعُها على تفرُّقها، أنّها تقوم على ترسيخ الجانب العَقَدي لدى أبناء المجتمع المسلم الذي كانت معالمه تتّضحُ يومًا فيومًا، ولا يخفى أنّ دراسة موضوعات السّورة مفتاحٌ مُهمّ ومَلمَحٌ مُعينٌ على فهم آياتها وإدراك جوّها العامّ والأغراض التي جاءت تُعالجها وتُبرزها، وهذا أمرٌ تكتنفه بعض الصُّعوبات أحيانا لأنَّ معاني القرآن تتشابه وتتكرّرُ، وقد تناولت السّورة معاني عديدة نلخّصها فيما يأتي:

بدأت بِالتَّنْوِيهِ بِالْقُرْآنِ الكريم، وَالإشادة بالرّسول ﷺ، وَتَقْسِيمِ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَمَرَاتِبِ الْأَفْهَامِ فِي تَلَقِّيهَا، وَالتَّنْوِيهِ بِفَضِيلَةِ الْإِسْلَامِ، والكُتب السّماويّة، والتَّعْرِيف بدلائل القدرة الإلهيَّة، وَإِبْطَالِ مظاهر الشّرك والوثنيّة، وجدال أهل الكتاب بالّتي هي أحسن، وما أظهره اليهودُ من كيد ومُروق، مع الدّعوة إلى الاتّحاد وجمع الشّمل وتوحيد كلمة المسلمين، والتَّحذير من الماكرين وأهل النّفاق، واستعراض ما شهدته الدّعوة النّبويّة من انتصارات وانكسارات، والتّنويه بشأن الشّهداء الأبرار، وتحفيز أهل الإيمان إلى الاجتهاد في أواب البرّ والمواساة والإحسان، وإبراز ملامح التَّفْكِيرِ فِي مَلَكُوتِ العزيز القدير[1].

المحور الَّذي تدور حوله موضوعات السُّورة

أمّا من حيثُ الوحدةُ الموضوعيَّةُ لسورة آل عمران فيرى الإمامُ الأكبر الشَّيخ شلتوت أنَّها جاءت تُعالج قضيَّتَيْن رئيستَيْن هما: تقرير الحقِّ في مسألة الألوهيَّة، وإنزال الكتب وما يتعلَّق بهما من أمر الدِّين والوحي والرِّسالة، وتقرير العلَّة في أسباب انصراف النَّاس عن الهداية[2].

وقد يبدو من زاوية أخرى أكثر دقَّة وتفصيلًا أنَّ المحور الَّذي تدور عليه السُّورة هو تقرير الثَّبات على هذا التَّوحيد وكلمة الدِّين، سواء أكان هذا الثَّبات في المنظور الداخليِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/144 - 145 (بتصرّف).

(2) شلتوت، الشيخ محمود، تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى)، ص: 77 - 78.

أم الخارجيِّ للأمَّة، وسواء أكان هذا الثَّبات فكريّا نظريّا أم عمليّا تطبيقيّا؛ إذ دعت السُّورة إلى الثَّبات على كلمة التَّوحيد، والثَّبات على الصَّبر عن الشَّهوات والمغريات، والثَّبات عند البلاء، وضربت على ذلك شواهد من ثبات الأنبياء والأولياء، وكذلك الثَّبات أمام أباطيل أهل الكتاب، وسَدّ باب الشُّبهات الَّتي يلقيها الحاقدون ويزرعها المشكّكون حول حقيقة التَّوحيد، وكذلك سلَّطت السُّورة الضَّوء على الثَّبات في ساحة المعركة؛ لذا كان اختيار غزوة أحد وما جرى فيها وبعدها، هو الأنسبَ لهذا المحور العام للسُّورة، سواء أكان عدم الثَّبات سببًا في الخسائر الَّتي لحقت بالمسلمين، أم كان الثَّبات سببًا في تجاوزهم المحنة وشفاء القرح بعد أن أصابهم ما أصابهم في المعركة، ففي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: 102- 105] دعت إلى الثَّبات على الدِّين الحقِّ حتَّى الموت، وبيَّنت بعض عوامل الثَّبات من اللُّجوء إلى اللَّه ﷻ والدَّعوة إلى دينه، وجمع الكلمة ونبذ الفرقة، وتحقيق الأخوَّة الحقيقيَّة، وضربت السُّورة بعض الأمثال للثَّابتين من أتباع الأنبياء السَّابقين:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: 146].

وبيَّنت السُّورة بعض مُعوِّقات هذا الثَّبات من خلال ذكر أصول الفتن الخمسة: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14].

وقوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران: 155- 156].

هذا، وقد خُتِمت السورة الكريمة أيضا بالأمر بالثَّبات في قوله تقدّست أسماؤه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران: 200].

فالسُّورة إذًا لم تأتِ لتقرير مبدأ التَّوحيد فقط، وإنّما تكفَّلت بذلك كلُّ السُّور المكيَّة الَّتي سبقتها، وإنَّما جاءت لتؤكِّد أهمِّيَّة الثَّبات عليه، وتكشف المعوِّقات الَّتي تحول دون تحقُّقه، وجاءت تُعالج هذه المعوِّقات، وتبيِّن للأمَّة ثمرات هذا الثَّبات على الحقِّ في الدُّنيا والآخرة.

❁ المناسبات بين سورة آل عمران والسُّور المجاورة:

جاءت سورة آل عمران في ترتيب المصحف الشَّريف بعد سورتَي الفاتحة والبقرة، وترتبط السُّورتان بنَمَطيْن من علاقات المجاورة من ناحية، وعلاقات المشابهة الموضوعيَّة من ناحية أخرى، فقد تقدَّم أنَّ سورة الفاتحة قد اشتملت على المقاصد الكلِّيَّة للقرآن الكريم: من توحيد وأسماء حُسنى وأخبار وأحكام وعقائد ووعد ووعيد، فهي تمثِّل الموجز أو الملخَّص لكلِّ ما يأتي بعدها من سور، ثمّ جاءت سورة البقرة ففصَّلت ما أُجمل في سورة الفاتحة، وبيَّنت أصول العقائد ومنظومات الأحكام التَّشريعيَّة والتَّعبديَّة والأخلاقيَّة، وأخبار الماضين بدْءًا من أبي البشرية آدم عليه السلام، وبيّنت أصناف النَّاس أمام هذه الدَّعوة ومواقفهم منها، وحاورت، وجادلت أهل الملل والنِّحل، فهي سورة الخلافة الحقيقيَّة للإسلام على هذه الأرض حيث عرضت مقوِّمات هذا الاستخلاف المادِّية والمعنويِّة، ومعوِّقاته من الدَّاخل والخارج، وسُبُلَ التَّعامل مع التَّحدِّيات والمعضلات التي تُواجه مهمَّة الاستخلاف في الأرض وعمارتها، وضربت الأمثلة والشَّواهد على من أقاموا هذا الاستخلاف ومن نقضوه من الأمم السَّابقة؛ لهذا اشتركت الزّهراوان في بعض السّمات الموضوعيَّة والملامح الأسلوبيَّة ممَّا يُؤكِّد اللُّحمة بين مقاصد السُّورتيْن، وقد تفطَّن الإمام البقاعيُّ لهذه اللُّحمة بين هذه السُّور الَّتي ابتدأ بها الكتاب، فقال: "لأنَّ الفاتحة لمَّا كانت جامعة للدِّين إجمالًا؛ جاء به التَّفصيل محاذيًا لذلك، فابتدىء بسورة الكتاب المحيط بأمر الدِّين، ثم بسورة التَّوحيد الَّذي هو سرُّ حرف الحمد وأوَّل حروف الفاتحة؛ لأنَّ التَّوحيد هو الأمر الَّذي لا يقوم بناء إلا عليه، ولمَّا صحَّ الطَّريق، وثبت الأساس؛ جاءت الَّتي بعدها داعية إلى الاجتماع على ذلك، وأيضًا فلمَّا ثبت بالبقرة أمر الكتاب في أنَّه هُدًى، وقامت به دعائم الإسلام الخمس؛ جاءت هذه لإثبات الدَّعوة الجامعة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21]

فأثبت الوحدانيَّة له بإبطال إلهيَّة غيره بإثبات أن عيسى - ﷺ - الَّذي كان يُحيي الموتى عبدُهُ، فَغَيْرُهُ بطريق الأولى، فلمَّا ثبت أنَّ الكلَّ عبيدُهُ؛ دعت سورة النِّساء إلى إقبالهم إليه واجتماعهم عليه، وممَّا يدلُّ على أنَّ القصد بها هو التَّوحيد: تسميتها بآل عمران، فإن لم يُعرِبْ عنه في هذه السُّورة ما أعرب عنه ما ساقه سبحانه وتعالى فيها من أخبارهم بما فيها من الأدلَّة على القدرة التَّامَّة الموجبة للتَّوحيد الَّذي ليس في درج الإيمان أعلى منه، فهو التَّاجُ الَّذي هو خاصَّة الملك المحسوسة، كما أنَّ التَّوحيد خاصَّتُه المعقولة، والتَّوحيدُ موجِبٌ لزهرة المتحلِّي به؛ فلذلك سمِّيت الزهراء[1]"، فالوشائج بين هذه السُّور المتجاورة ظاهرة للعيان دون أدنى تكلُّف، فلئن كانت سورة البقرة قد عرضت لمهمَّة الاستخلاف على هذه البسيطة وما يستلزمه من أغراض؛ فقد جاءت سورة آل عمران لتُفَصِّلَ ببعض ما يلزم هذا الاستخلاف من ثبات على العقيدة ورسوخ فيها، وتَعْرِضَ النماذج الحيَّة على ذلك من الأخبار الماضية وممَّا شهده الجيل الأوَّل الَّذي عاش نزول القرآن فيما جرى معهم في أحد، فضلًا عن اشتراك السُّورتَيْن في المطلع في الابتداء بنفس الأحرف المقطَّعة والحديث عن الكتاب المبين.

وخلاصة القول: إنّ سورة آل عمران مُكَمِّلة لسورة البقرة؛ فقد تضمَّنت سورة البقرة الحديث عن قواعد الدِّين، وأحكامه وشرائعه، وركّزت على شروط خلافة الإنسان في الأرض، وحدّدت الجوانب المتعدّدة التي ينبغي أن يُعنى بها المسلم خلال أدائه لمهمّة تعمير الأرض وبناء الحضارة فيها.

ثمّ جاءت سورة آل عمران لإقامة الدَّليل على الأحكام، والإجابة عن شُبُهات الخُصُوم من دعاوى النَّصارى، وكيد اليهود المعلوم، واشتركت السّورتان في الكلام تفصيلا عن الحجّ في الأولى، ووجوبه في الثّانية، وقد تعرّضت سورة البقرة ابتداء لقضايا اليهود وطباعهم وعلائقهم، وجاءت سورة آل عمران بعدها للإفاضة في الكلام عن النَّصارى؛ لكون التّوراة أصلًا والإنجيل فرعًا لها، ويؤكِّد ذلك أنَّ صدر سورة آل عمران، نزل بسبب وفد نصارى نجران ومجادلتهم مع الرَّسول [2] ﷺ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/3-4.
(2) السيوطي، قطف الأزهار: 53.

ويربط الإمام الآلوسيُّ بين السُّورتين بقوله: "ووجه مناسبتها لتلك السُّورة أنَّ كثيرًا من مجملاتها تشرح بما في هذه السُّورة، وأنَّ سورة البقرة بمنزلة إقامة الحجَّة، وهذه بمنزلة إزالة الشُّبهة؛ ولهذا تكرَّر فيها ما يتعلَّق بالمقصود الَّذي هو بيانُ حقيقة الكتاب من إنزال الكتاب وتصديقه للكتب قبله والهدى إلى الصِّراط المستقيم، وتكرَّرت آية ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: 136] بكمالها؛ ولذلك ذكر في هذه ما هو تالٍ لِما ذُكر في تلك أو لازمٌ له، فذَكَر هناك خَلْق النَّاس، وذَكَر هنا تصويرهم في الأرحام، وذكر هناك مبدأ خلق آدم، وذكر هنا مبدأ خلق أولاده، وألطف من ذلك أنَّه افتتح البقرة بقصة آدم وخلقه من تراب ولا أمّ، وذكر في هذه نظيره في الخلق من غير أب وهو عيسى، ولذلك ضرب له المثل بآدم، واختصَّت البقرة بآدم؛ لأنَّها أوَّل السُّور، وهو أوَّل في الوجود وسابق، ولأنَّها الأصل، وهذه كالفرع والتَّتمَّة لها فاختصَّت بالأغرب، ولأنَّها خطاب لليهود الَّذين قالوا في مريم ما قالوا، وأنكروا وجود ولد بلا أب، ففوتحوا بقصَّة آدم لتثبت في أذهانهم، فلا تأتي قصَّة عيسى إلَّا وقد ذكر عندهم ما يشهد لها من جنسها، ولأنَّ قصَّة عيسى قيست على قصَّة آدم، والمقيس عليه لا بدَّ وأن يكون معلومًا لتتمَّ الحجَّة بالقياس، فكانت قصَّة آدم - والسُّورة الَّتي هي فيها - جديرة بالتَّقديم"[1].

وجاء بعدها سورة النِّساء الَّتي وضعت معادلة الخروج من حالة الضَّعف إلى حالة القوَّة، فعالجت مقاصد الشَّريعة الخمسة من حفظ الدين والنَّفس والمال والعقل والعرض، وبيَّنت مراعاة هذه المقاصد للضُّعفاء من النِّساء والأطفال والسُّفهاء، فوضعت أصول العدل والإنصاف في التَّعامل بين النَّاس؛ لأنَّهم خُلقوا من نفس واحدة، وهذه المقاصد السَّامية لا تتحقَّق في المجتمع إلَّا بعد تمكُّن حقيقة التَّوحيد في النُّفوس وثباتهم عليها، وبعد سورة النِّساء تأتي سورة المائدة الَّتي تشارك سورةآل عمران في جدال أهل الكتاب وكشف زيف ادّعاءاتهم، ولكنَّها جاءت في سورة المائدة في سياق بيان نقض أهل الكتاب للعهود الَّتي أُخذت عليهم، وكيف أنَّهم ينقضون عهودهم ومواثيقهم؛ كلَّما سنحت لهم الفرصة بذلك، فضلًا عن أنَّ سورة المائدة جاءت لتقرِّر أمرًا أبعد مدى من مجرَّد تقرير الوحدانيَّة للَّه كما هي في آل عمران، بل جاءت لتبيِّن أنَّ الله تعالى هو المعبودُ بحقٍّ، وهو

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/118.

المنفرد بالأمر والنّهي والتَّحليل والتَّحريم دون سواه، فكانت سورة آل عمران في وضعها المُحكم خلال هذه السِّلسلة من المقاصد والغايات القرآنيَّة المترابطة بحيث إنِّك لو أبدلت غيرها مكانها؛ لذهب الرَّونق ولفسد المعنى.

❁ مناسبة أوَّل سورة آل عمران لآخر سورة البقرة:

وَمُنَاسَبَةُ مطلع سورة آل عمران لمختتم سورة البقرة أنّه جلّ شأنه لَمَّا ذَكَرَ في آخِرِ الْبَقَرَةِ على ألسنة المؤمنين: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: 286]، نَاسَبَ أَنْ يذكر نصر الله تَعَالَى رسوله عَلَى الْكَافِرِينَ، حَيْثُ نَاظَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ بِالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَةِ، وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ، فَقَصَّ تَعَالَى أَحْوَالَهُمْ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ فِي اعْتِقَادِهِمْ، وَذَكَرَ تَنْزِيهَهُ تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ، وَبَدَاءَةَ خَلْقِ مَرْيَمَ وَابْنِهَا الْمَسِيحِ إِلَى آخِرِ مَا رَدَّ عَلَيْهِمْ، وَلَمَّا كَانَ مُفْتَتَحُ آخِرِ آيَةٍ فِي الْبَقَرَةِ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: 285]، مشيرًا إلى الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَبِالْكُتُبِ؛ نَاسَبَ ذلك ذِكْرَ أَوْصَافِ اللَّهِ تَعَالَى، وَذِكْرَ مَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ، وَذِكْرَ الْمُنَزَّلِ عَلَى غَيْرِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ - في مطلع سورة آل عمران[1].

❁ المناسبات الداخليَّة بين آيات السُّورة الكريمة:

تنقسم آيات السورة الكريمة إلى طائفتيْن متتاليتيْن من الآيات: الطَّائفة الأولى: من بدايتها إلى نهاية الآية (120) فيها، وقد تناولت الحديث عن تنزيل الكتاب بالحقِّ وعن هداياته، وعن الكافرين وأسباب كفرهم ومآلهم، وعن أهل الكتاب ومواقفهم المختلفة، وعن اصطفاء اللَّه تعالى لآدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ثمَّ ذكرت السُّورة قصَّة ميلاد المسيح عليه السلام وما جرى مع أمِّه وجدّته قبل ذلك، وأثناء ذلك أدخلت السُّورة جانبًا من قصَّة زكريَّا عليه السلام وطلبه الذُّرِّيَّة لتحمل المهمَّة من بعده، ثمَّ جانبًا من قصَّة المسيح عليه السلام مع بني إسرائيل؛ لينتقل الحوار بعد ذلك إلى أهل الكتاب الملازمين للنَّبيِّ ﷺ وصفاتهم ومواقفهم ومجادلتهم، ووصايا للمؤمنين بكيفيَّة التَّعامل معهم، ثُمَّ جاءت الطَّائفة الثَّانية من الآيات (121 إلى نهاية السورة) تتحدَّث عن غزوة أحد وما يتعلَّق بها من قضايا وأحكام، وسلكت منهج التَّثبيت وجبر الخواطر للمسلمين على ما أصابهم في

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/9.

أحد، ولم يأتِ الحديث عن أُحُد إلَّا في هذه السُّورة لارتباط أحداث الغزوة والتَّعقيب عليها بمحور هذه السُّورة، فاختصَّت السُّورة بموضوعات وحوارات مع أهل الكتاب ومشاهد قصصيَّة حيَّة متناغمة مع جوِّ السُّورة ومحورها العامِّ؛ فضلًا عن الظَّواهر الأسلوبيَّة فيها، حيث تكرَّرت أثناء السُّورة كلمة التَّوحيد في ثلاثة مواضع، وكلمة الكتاب في نحو (32) موضعًا، وأهل الكتاب نحو (12) مرَّة، وكلمة الدِّين والإسلام نحو (12) مرَّة، وكثرة النِّداءات للَّذين آمنوا في هذه السُّورة (7 مرَّات) من أصل (89) موضعًا في القرآن، ولأهل الكتاب (6) مرَّات في السُّورة الكريمة، نصفُها سُبِق بقوله ﴿قُلْ﴾ من أصل (12) نداء وجّهه اللّه تعالى إليهم في القرآن الكريم، فهناك نداء واحد في جارتها سورة النِّساء، وخمسة نداءات لهم في سورة المائدة المجاورة لها أيضًا الَّتي شاركتها في بعض المضامين المتعلَّقة بأهل الكتاب لكن من منظور آخر، ممَّا يدلُّ بوضوح على هذا التَّساوق والتَّناغم في الوحدة البنائيَّة لهذه السُّور المتجاورة، وأنَّها كالبنيان المرصوص آخذٌ بعضها بحُجز بعض، فضلًا عن أنَّه قد كثر في السُّورة أسلوب القصر عمومًا بنحو (40) موضعًا، لا سيَّما بطريقة الاستثناء بعد النَّفي الَّتي زادت عن نصف عدد مرَّات القصر في السُّورة، وهو أسلوبٌ بلاغيٌّ مهمٌّ من أساليب التَّوكيد والتَّقرير، وكذلك انفردت السُّورة ببعض الفرائد من أسماء وأفعال مثل: ﴿رَمْزًا﴾ و﴿بِدِينَارٍ﴾ و﴿بِبَكَّةَ﴾ و﴿غُزًّى﴾ و﴿فَظًّا﴾ و﴿نَبْتَهِلْ﴾ و﴿تَدَّخِرُونَ﴾، وهي ألفاظ ترتبط بمعاقد ومفاصل مهمَّة من بنيان هذه السُّورة والقضيَّة الأساسيَّة الَّتي قامت عليها، ولا شكَّ أنَّ هذه الخصائص الأسلوبيَّة تساعد في رسم شخصيَّة هذه السُّورة الَّتي عالجت موضوع التَّوحيد والثَّبات عليه، والتَّأكيد على أنَّ الدِّين عند اللّه هو دين الإسلام الحقّ الَّذي ينبغي ألَّا يماري فيه أهل الكتاب ولا غيرهم بما يلقونه من شبهات وأباطيل بغية النَّيل منه.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»